

الربيع في شعر إقبال وشوقي دراسة مقارنة

هند عبد الحليم محفوظ رمضان*

المقدمة:

أولاً: موضوع البحث: يتناول هذا البحث وصف عناصر الطبيعة لدى اثنين من أكبر وأعظم الشعراء في الأدبين الأردني والعربي، وكلاهما يحتل مكانة مرموقة في أدبه ولغته. فالعلامة إقبال هو أكبر شاعر في شبه القارة الهندوباكستانية، فهو شاعر الشرق، والآخر الشاعر أحمد شوقي الذي لقب بأمر الشعراء، كما أن الشاعرين ينتميان إلى نفس الفترة الزمنية، فكلاهما عاشا في الثلث الأول من القرن العشرين.

يضم البحث في البداية تمهيدا يتضمن مختصراً عن أهم القواسم المشتركة في حياة كلا الشاعرين، كما يتطرق إلى أسلوب وصف "عناصر الطبيعة في شعر العلامة إقبال"، ثم يليه دراسة عن "عناصر الطبيعة في شعر أحمد شوقي". أما الموضوع الأصلي للبحث فهو تحليل عنصر من عناصر الطبيعة وهو "الربيع في شعر إقبال وأحمد شوقي" من خلال قصائد ديوان بال جبريل لإقبال، وقد وقع اختياري على هذا الديوان - على وجه الخصوص - لما يحتوي على الكثير من عناصر الطبيعة، كما أن إقبال في هذا الديوان يحكى عن خواتمه الخاصة، وأسفاره إلى إسبانيا، وفلسطين، وبكائه على أطلال قرطبة، وغيرها من الآثار الإسلامية والتاريخية وقد تعرض لكل هذا من خلال وصفه لعناصر الطبيعة، لذا يعد هذا الديوان أفضل دواوين إقبال

* أستاذة مساعدة بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، مصر.

عن الطبيعة. أما دراسة قصائد أحمد شوقي، فتمت من خلال مطالعة أعماله الكاملة التي تحمل اسم الشوقيات وهي مكونة من مجلدين، كل مجلد يضم جزئين. وتقدم الدراسة تحليلاً للقصائد المختارة من ناحية الألفاظ والمعاني والبلاغة والمقارنة بينها لإبراز "القواسم المشتركة في شعر إقبال وأحمد شوقي" كي نصل في نهاية المطاف إلى خاتمة والتي قدمت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

ثانياً: منهج البحث وهدفه: المنهج الذي طبقته في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي - أما هدف البحث فهو الكشف عن الجوانب الأدبية الإنسانية التي تربط بين بيئتين وثقافتين مختلفتين متباعدين، بل بين مدرستين أدبيتين انتمى لهما الشعراء، فإقبال تخرج من مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، فقد درس في إنجلترا وألمانيا على يد أساتذة بارعين وارتوى من مناهلهم حتى أصبح من أفاذ الشرق الإسلامي في الثقافة الغربية، لكن إقبال لم يكتف بثمار تلك المدرسة، فقد جمع بين علوم الشرق وروحانياته وعلوم الغرب، وصب كل ذلك الخليط في شعره الذي أهر العالم بأسره. وجهوده لا يستطيع أحد أن ينكرها أو ينساها، والتي لولاها لما وصل الأدب الأردني والشعر منه بصفة خاصة إلى تلك المكانة التي وصل إليها اليوم، فقد تطرق إقبال إلى موضوعات شعرية جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل. ويتميز إقبال عن غيره من الشعراء بأنه قد كرس شعره من أجل النهوض بمسلمي الهند، والأخذ بيدهم نحو النهوض والتطور والتقدم. أما أحمد شوقي فكان من رواد مدرسة "البعث"، فهذه المدرسة أرست لها قيم فنية محددة، استلهمها شعراء على جانب كبير من الموهبة التزموا بها وتغنوا في ظلها. وأولى هذه الخصائص: روعة الأداء الفني، وجلال الموسيقى الشعرية، وعذوبة الصياغة الفنية، وقبل كل هذا ضخامة مواهبهم الشعرية. "وإذا كان البارودي هو الرائد الأول لهذه المدرسة، فإن شوقي هو زعيم هذه المدرسة بلا منازع؛ فهو الذي طورها وأضاف إليها أبعاداً كثيرة وضمن لها الذبوع في معظم أرجاء الوطن العربي، وهو الذي أدخل في تضاعيف أشعارها ألواناً جديدة مثل الشعر المسرحي والقصصي والمطولات الشعرية^(١).

ثالثاً: فرضيات البحث: كما ذكرت أن كلا الشاعرين لها ظروف متشابهة، حيث ينتميان إلى نفس الفترة الزمنية والتي وقع فيها العالم الإسلامي بأسره تحت ظلال الاحتلال البريطاني، وكان كلا الشاعرين

١ - عبد العزيز الدسوقي، مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م) ص ١١-٢٣.

من أوائل الشعراء الذين وهبوا أنفسهم وسخروا قلمهم من أجل النهوض بالوطن للخلاص من هذا الاحتلال الغاشم، فكان لكل منهما فلسفة خاصة، وقد وظفا شعريهما لتحقيق هذه الفلسفة، ومن هنا أجدني مضطراً لطرح سؤال هام يجب أن أبحث له عن إجابة في ثنايا الدراسة وهو:

- ما هي أهم عناصر الطبيعة عند كلا الشاعرين، وكيف وصف كل منهما هذه العناصر؟
- كيف وظف كل منهما عناصر الطبيعة في تطويع فلسفته؟
- ما هي أهم وأبرز عناصر الطبيعة المشتركة بين كلا المجتمعين المصري والباكستاني؟

الدراسات السابقة: العلامة إقبال من أكبر وأهم شعراء الأردية، فهو شاعر الشرق، كذلك الشاعر المصري أحمد شوقي في الثقافة العربية لا يقل أهمية عنه، فهو أمير شعراء العرب، لذا قُدمت حولهما العديد من الأبحاث والدراسات، لكن لم أجد دراسة مستقلة تتناول عناصر الطبيعة في شعريهما، والمقارنة بينهما، فلم يتناوله أحد بالدراسة من قبل.

رابعاً: التمهيد:

مما لا شك فيه أن كلا من "إقبال" و"شوقي" غني عن التعريف، فقد أقيمت حولهما العديد من المؤتمرات وقدمت عنها الكثير من الدراسات والأبحاث التي تستحق التقدير والاحترام. لذا سأحاول جاهدة أن أذكر عنهما بعض المقتطفات عن حياتهما التي تحدم موضوع البحث والتي يتضح من خلالها مدى التشابه بين الظروف التي مرا بها، وعليه كان سبب اختياري لهذين الشاعرين حيث توجد قواسم مشتركة بينهما، كما أنهما ينتميان إلى نفس الفترة الزمنية. فقد ولد كلاهما في فترة كان العالم الإسلامي جميعاً يئن تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، حيث كانت شبه القارة الهندية ومصر وغيرهما من البلدان العربية والإسلامية تقع تحت نيران الاستعمار البريطاني، فعانى كلا الشاعرين ذلك الصراع المرير بين الحضارة الغربية، والحضارة الشرقية، كما حمل كل منهما هموم قومه والعالم الإسلامي بأسره.

ولد إقبال عام ١٨٧٧م في مدينة سيالكوت^(٢)، في فترة حاسمة من أصعب الفترات التي مرت بها شبه القارة الهندوباكستانية، إذ كانت تعاني بلاده والعالم الإسلامي بأجمعه من الاحتلال الأجنبي لها، لكن الله قد حمى هذه البلاد الإسلامية بمثل هؤلاء الزعماء المصلحين، فبينما كان سعد زغلول وأحمد شوقي في مصر، كان

٢ - راجع إقبال، لاهور میں مدفون تاریخی شخصیات (لاهور: اردو بازار، مشتاق بک کارنر، ٢٠١١م) ص ٤٣٢.

العلامة محمد إقبال والسرسيد أحمد خان على رأس زعماء الحركة الوطنية في شبه القارة، ييـث في مسلمي الهند روح الجهاد والتصدي للمستعمر، واليقظة من سباتهم، والسير نحو التقدم والرقي، فالعلامة محمد إقبال رحمه الله قدّم فكرة إنشاء وطن مستقل لمسلمي الهند، وظل يجارب من أجل تحقيق هذا الهدف حتى تحقق له بقيام باكستان عام ١٩٤٧م، لكن لم يقدر لحلمه أن يتحقق وهو على قيد الحياة، فقد وافته المنية في عام ١٩٣٨م. بعد أن أثرى العالم بقصائده التي لا مثيل لها، فترك ثروة ضخمة لا بأس بها في تاريخ الأدب الأردني.

لا بد أن أشير إلى أن العلامة إقبال قد "سافر عام ١٩٠٥م إلى أوروبا لاستكمال دراسته، فحصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٨م، وعمل كأستاذ بجامعة كمبردج، ثم عاد إلى وطنه وهو يحمل في قلبه وعقله هموم المسلمين بصفة عامة، ومسلمي الهند على وجه التحديد، فبدأ ييـث فيهم بأشعاره روح الهمة والعزيمة ويذكرهم بماضيهم العظيم"^(٣).

أما "شوقي" فهو ألمع شاعر في تاريخ أدبنا العربي الحديث لتعدد نواحيه الفنية وتشعب آثاره الأدبية، فقد ملأ عصره بقصائده الغنائية الرائعة، وبمسرحياته التمثيلية.

ولد شوقي في عام ١٨٧٠م ويقال عام ١٨٦٨م في بعض المصادر، بحي "الحنفي" الشعبي العريق بالقاهرة لأسرة ميسورة ذات أصول اختلطت فيها الدماء العربية والشركسية والتركية. تلقى تعليمه في الكتاب ثم المدارس الحكومية الابتدائية والثانوية، التحق بكلية الحقوق عام ١٨٨٥م، وبعد عامين افتتح فيها قسم للترجمة فالتحق به وتخرج منه، فعين مترجماً بديوان الخديوي توفيق ثم عين رئيساً لقسم الترجمة، ثم منحه الخديوي توفيق منحة لفرنسا ليدرس القانون، ف قضى أربعة أعوام في باريس، لا شك أنها كانت ذات تأثير ثقافي وشعوري هائل، حيث التقى هناك بالحضارة الأوروبية وتعرف على معالم الفن الفرنسي، ثم بدأ محاولات الإبداع والكتابة فكتب "المخطوطة" الأولى لمسرحية "علي بيك الكبير" وترجم العديد من القصائد^(٤).

أحمد شوقي عبقرية شعرية ضخمة توافر لها كل عناصر هذه العبقرية، موهبة عاتية، ونغم موسيقي ساحر خلاب، وخيال خلاق محلّق، وعاطفة جياشة، وقاموس شعري ملون خصب، وحاسة نافذة تمزج

٣ - عظيم الحق جندي، اردو ادب کی تاریخ (علی گڑھ: لہجو کیٹل بک ہاؤس، ١٩٩٠م) ص ١٣٢.

٤ - سامي خشبة، مفكرون من عصرنا (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٨م) ص ٥٢.

الماضي بالحاضر، فيتكون منها "مركب جديد" فيه أعمق ما في الماضي وأجمل ما في الحاضر. وهذه العناصر قلما اجتمعت لشاعر من شعراء العربية في القديم والحديث، وكان هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يعترفون به إماماً لهم، حيث لقب بأمير الشعراء في عام ١٩٢٧م^(٥).

أعماله :

أولاً- الشعر: الأعمال الكاملة له تسمى الشوقيات تتكون من أربعة أجزاء تقع في مجلدين .
كما كتب ست مسرحيات شعرية وهي: مصرع كليوباترا، مجنون ليل، قمبيز، علي بيك الكبير، عنتره، والست هدى.

ثانياً- النثر: له في النثر عدة روايات هي: عذراء الهند، والفرعون الأخير، ولادياس، وورقة الآس. كما له كتاب: أسواق الذهب.

المبحث الأول: عناصر الطبيعة في شعر العلامة إقبال وأحمد شوقي
أولاً: عناصر الطبيعة في شعر العلامة إقبال:

نوه العلامة أبو الحسن علي الندوي إلى أن هناك أربعة عوامل أسهمت في تكوين شخصية إقبال، وهذه العوامل هي:

- الإيمان.
- القرآن العظيم.
- معرفته لنفسه والغوص في أعماقها والاعتداد بقيمتها والاحتفاظ بكرامتها.

أما العامل الرابع فيقول عنه العلامة أبو الحسن الندوي:

"أما المربي الرابع الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته وفي قوة تأثير شعره، وجدّة المعاني، وتدفق الأفكار، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب، والاشتغال بالمطالعة، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب، ويتعرض لنفحات السحر، ويقوم في آخر الليل، فيناجي ربه، ويشكو بته وحزنه إليه، ويتزود بنشاطٍ روحي جديد، وإشراقٍ قلبي جديد، وغذاء فكري جديد، فيطلع على أصدقائه وقراءه بشعر جديد، يلمس الإنسان فيه قوة جديدة، وحياة جديدة، ونوراً جديداً؛ لأنه يتجدد كل يوم، فيتجدد

٥ - عبد العزيز الدسوقي، مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث، ص ١٥٦.

شعره، وتتجدد معانيه" (۶).

فالعلامة إقبال كان عظيم التقدير لهذه الساعات التي يقضيها في السحر، حيث يقول داعياً في إحدى قصائده:

"خذ مني ما شئت يا رب! ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر، ولا تحرمني نعيمها" (۷).

بل كان يتمنى من الله أن تتعدى هذه الآنة، إلى شباب الأمة كي تحرك سواكن قلوبهم، وتنفخ الحياة في هياكلهم فيقول في قصيدة له:

"اللهم اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية، وأيقظ الآمال والأمانى النائمة في صدورهم بنجوم سمواتك، التي لا تزال ساهرة، وعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً، ولا يكتحلون بنوم، ارزقهم لوعة القلب، وارزقهم حبي وفراستي" (۸).

فللسحر أهمية كبرى لدى العلامة إقبال، وهذا ما جعله يوظفه في قصائد عديدة فيقول في إحدى رباعياته والتي يدعو الله فيها بأن يرزق الشباب لذة السحر، ثم يناجي الله قائلاً: يا رب تلك أمنيته، أن تنتشر فراستي ويعم نور بصيرتي بين المسلمين:

اللهم ارزق الشباب شجوني في السحر واكسو أجنحة صغار الصقور ريشاً
إلهي! لي أمنيته وهسي أن يعم نور بصيرتي (۹).

كما أشد إقبال بالسحر في قصيدة أخرى، حيث يقول:

۶ - محاضرة ألقاها في مدرج كلية الآداب - جامعة القاهرة في ۱۹ من جمادى الآخرة لعام ۱۳۷۰هـ، الموافق

۱۹۵۱/۳/۲۸ م، نقلاً عن: أبو الحسن على الحسن الندي - روائع إقبال - (دمشق: دار الفكر، ۱۹۶۰ م) ط ۱.

۷ - المصدر السابق.

۸ - المصدر السابق.

۹ - جوانوں کو مرئی آہ محردے پھر ان شائین بچوں کو بال وپردے

خدا یا! آرزو میری ہی ہے مرا نور بصیرت عام کر دے

محمد إقبال، کلیات إقبال - بال جبریل - (لاہور: زاہد شہیر پرنٹرز، ۲۰۰۸ م) ص ۶۶۹.

فطرتی مثل نسیم السحر تُبطئی حرکتها حیناً وتُسرع أخرى
کسوٹُ ثياب الحرير بالورود واصنع من شوکه إبرة حادة للوخز با(۱۰).

ولأن إقبال كانت لديه فلسفة خاصة، فقد وظف عناصر الطبيعة لتطويع فلسفته هذه، فقد استعان بالطبيعة لعوامل سياسية ملتزمة متمنياً هطول أمطار الثورة لتزدهر حال أمتة وتنقش الغمة وينزاح غبار الاستعمار عن وطنه، وكانت قصيدة "ذوق وشوق" من أروع ما نظم في الطبيعة، وهذه القصيدة نظمها عندما زار فلسطين، وكان ممثلاً للهند في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس عام ۱۹۳۱ م. وقد حركت مناظر الطبيعة في فلسطين، التي أكرمها الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية، عواطف الشاعر فهاجت قريحته وتحرك الحب الدفين داخله، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن، وتظهر الكوامن، عندئذ يتذكر الإنسان أحب شيء إليه فيحن إليه، ويتمثله ويتغنى به، وقد حل "الإسلام" والأمة الإسلامية في قلبه محل الحبيب الأثير، وسيطر حبه على مشاعره، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنى بجماله ومحاسنه، فقال:

الصباح في الصحراء، حياة للقلب والنظر
تندفق أنهار النور من الشمس
فقد هتك الحسن الأزلي ستر الوجود
فالنظرة منه تفيض على القلب بألف نعمة
خلف سحاب الليل، سحب حمراء والزرقاء
فكست جبل الاضم حلة حمراء ووردي
الهواء صاف عليل، والنخيل مبلل بالندى
ورمال أطراف كاظمة أشبه بالحرير المطرز
هنا نار منطفئة، وهناك جبال متقطعة

رقم ہے میری کبھی آہستہ کبھی تیز

کرتا ہوں سرخار کو سوزن کی طرح تیز

۱۰ - فطرت میری مانند نسیم سحری ہے

پہناتا ہوں اٹلس کی قبائلہ وگل کو

محمد إقبال، کلیات إقبال - بال جبریل - ص ۷۸۱.

کم من قوافل عبرت من هذا المكان (۱۱).

كما ذكرت سابقاً، أن للشعر رسالة بالغة الأهمية، وهي إصلاح الأمم الإسلامية، فالشعر عند إقبال له "رسالة أخلاقية" مهمته إشعال العواطف في قلوب الأمة، يحرك النفوس ويبعث بالأمل، وقد نجح شعر إقبال في تحقيق هدفه المنشود، فقد كان شعره قادراً على إثبات الذات والتعبير عنها، والتأثير فيها، وكان الطاقة التي تدفع إلى الأمل، والنور الذي يشع الضياء في العين.

وقد يكون الشعر عند إقبال ذاتياً، يحمل تأملات خاصة، فقد يكون تأملاً في الطبيعة وحوار معها، حوار بين الشاعر والطبيعة أو حوار بين عناصر الطبيعة، كما سأذكر في القصيدة التالية، فمن تأملاته في جمال الطبيعة، وفي الذات، كانت تلك الغزلية:

أضواء شقائق النعمان قنديلها على الجبال
ودعاني العصفور لأنشد لحني من جديد
اصطفت الزهر في الصحراء متتابع في إهابها ما بين
قرمزي قرمزي، أزرق أزرق، أصفر أصفر
وألقي نسيم الصباح بلؤلؤة الندى على أوراق الزهر
فأضواء شعاع الشمس هذه اللؤلؤة

۱۱ - قلب و نظری زندگی دشت میں صبح کا سماں

چشمہ آفتاب سے نور کی ندیاں رواں
حسن ازل کی ہے نمود، چاک ہے پردہ وجود
دل کے لئے ہزار سودا ایک نگاہ کا زیاں
سرخ و کبود لیاں چھوڑ گیا سحاب شب
کوہا ضم کو دے گیارنگ برنگ طلیماں
گرد سے پاک ہے ہوا، برگ نخیل دھل گئے
ریگ نواح کاظمہ نرم ہے مثل پر نیاں
آگ بجھی ہوئی ادھر، ٹوٹی ہوئی طناب ادھر
کیا خبر اس مقام سے گزرے ہیں کتنے کارواں
انظر: محمد إقبال، بال جبریل، ص ۱۱۱.

الحسن غير مبالٍ بسفوره

إذا كانت الغابة تروق لي أكثر من المدن، فالمدينة هي أفضل غابة

أعرق في ذاتك، بحثاً عن قنديل الحياة

فإذا لم تروق لك غابتي، فابحث عن غابتك^(۱۲).

كما ذكرت أن خيال إقبال في استخدام الحوار لا يتوقف به عند حد الطبيعة الحية فقط، بل وصل به إلى الطبيعة الصامتة أيضاً، فجعل من عناصرها إنساناً، يتخيل أن الشمس والقمر والنجوم، ... إنساناً يكلمها وتكلمه - أو تصغي إليه على الأقل، وقصائد إقبال في هذا الوصف كثيرة، منها قصيدة "إذان: الأذان"، فيقول:

ذات ليلة، قال نجم السحر للكواكب

هل رأى أحد منكم آدم مستيقظاً؟

فقال المريخ ساخراً

الحكمة تقتضي أن يغط هذا الصغير في سبات عميق

قالت زهرة، ما هذا الهراء؟

۱۲ - پھر چراغِ لاله سے روشن ہوئے کوہِ دامن

مجھ کو پھر نغموں پہ اکسانے لگا مرغِ چین

پہول ہیں صحرائیں یا پر یاں قطار اندر قطار

اودے اودے، نیلے نیلے، پیلے پیلے پیر ہن

برگ گل پر کھ گئی شبنم کا موتی باد صبح

اور چمکتی ہے اس موتی کو سورج کی کرن

حسن بے پروا کو اپنی بے نقابی کے لئے

ہوں اگر شہروں سے بن پیارے تو شہر اچھے کہ بن

اپنے من میں ڈوب کر پاجا سراغِ زندگی

تو اگر میرا نہیں بنتا تو نہ بن، اپنا تو بن

محمد إقبال، کلیات إقبال - بال جبریل - ص ۵۹۳، ۵۹۴.

هل سئمضي الليلة في حديث غير ذي بال! (۱۳).

استعان إقبال بعناصر الطبيعة في بناء لغته الشعرية، حيث تفاعل معها وتأثر بها، إلى الحد الذي جعلها تشاطره همومه وأشجانه، فنجد عنده وصفاً للطبيعة بجمع مظاهرها ومباهجها، فنجد عنده الطبيعة الصامتة برياضها، وأشجارها، وأزهارها، وأنهارها، وجبالها، وسائتها، ونجومها، وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار... إلخ.

كما وصف إقبال الطبيعة الصائتة/ الحية، حيث تحتل مساحة واسعة في أشعاره، فنجد عنده العديد من القصص على ألسنة الحيوانات، والحشرات، والطيور الجارحة وغير الجارحة، وأفرد لها قصائد خاصة تحمل عنواناً لقصائده، ويبدو أن إقبال في هذا التناول متأثر إلى حد كبير بكتاب كليلة ودمنة، الذي ترجم إلى عدة لغات، فتأثر به معظم الأدباء والشعراء والفلاسفة، في الآداب العربية والعالمية، وقد كتب إقبال هذه الأشعار القصصية بهدف العظة والعبرة والدرس الأخلاقي للأطفال.

"حين يأتي الشعر - وهو أرقى وأسمى أنواع البيان الإنساني - على ألسنة الحيوان، فإن ذلك يُعد من الأعاجيب التي تثير خيال الطفل، لأن الكلام الموزون محبب إلى قلوب الأطفال حتى قبل أن يدركوا معانيه ومراميه، كما أنها تجذب انتباه الطفل وتأسر حواسه فيتابعها بشغف وإعجاب شديد، فإذا ما اندمجت هذه المحببات إلى قلب الطفل في بوتقة واحدة، فإن ذلك يكون له وقع أقوى في وجدانيات الأطفال، وأسرع إلى أذهانهم، وأكثر تأثيراً في سلوكياتهم" (۱۴).

۱۳ - "اوان"

اک رات ستاروں سے کہا ٹم سحر نے
آدم کو بھی دیکھا ہے کسی نے کبھی بیدار؟
کہنے لگا مرخ، ادا فہم ہے تقدیر
ہے نیند ہی اس چھوٹے سے فتنے کو سزاوار
زہرہ نے کہا، اور کوئی بات نہیں کیا؟
اس کرک شب کو سر و کار
محمد إقبال، بال جبریل، ص ۱۴۵.

۱۴ - محيي الدين صالح، الشعر على ألسنة الحيوان، دراسة بعنوان "أدب الأطفال من منظور إسلامي"

للمزيد راجع www.aluka.net

ومن هذه القصائد نذكر قصيدة: "شير اور خچر: الأسد والبغل"، "چیونٹی اور عقاب: النملة والنسر"، "عقاب: النسر"، "ایک مکڑا اور کھی: العنكبوت والذبابة"، "ایک گائے اور بکری: البقرة والنعجة"، "پروانہ اور گلنو: الفراشة والبراعة"،... إلخ وكما ذكرت أن كل هذه القصائد التي نظمها إقبال كانت مخصصة للأطفال، فكان الهدف الأساسي منها العظة والعبرة، والدرس الأخلاقي للطفل، ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال القصيدة "چیونٹی اور عقاب":

النملة:

لماذا أنا مهودور الحقوق، ذليل، وقلق، ومتألم

وأنت ذو رفعة، مكانك بين النجوم؟

النسر:

أنا لا أبحث عن رزقي وسط التراب

ولا أنظر نظرة نحو السماء! (۱۵).

في القصيدة السابقة لم يكتف إقبال بوصفه للطبيعة أو بتصوير مشاهدتها، بل لقد أخرجها من حد الطبيعة الحية إلى حد الإنسانية، فجعل النملة تتحدث وتشكو سوء حالها إلى النسر، فتقول: لماذا أنا كائن مظلوم في البحث عن رزقي، بينما النسر يطير محلقاً في السماء العُلا؟ فرد عليها النسر رداً مقنعاً، بأن هذه هي حكمة الإله، فهو ليس مثلها يبحث عن رزقه وسط التراب، كما أنه لا ينظر إلى من هو أعلى منه فلا ينظر نحو السماء. بينما كان للشاهين "الصقور" مكانة خاصة عند إقبال، حيث كان عنصراً أساسياً من عناصر الطبيعة

۱۵ - (چیونٹی اور عقاب)

چیونٹی:

میں پائمال و خوار و پریشان و دردمند

تیرا مقام کیوں ہے ستاروں سے بھی بلند

عقاب:

تو رزق اپنا ڈھونڈتی ہے خاک راہ میں

میں نہ سپہر کو نہیں لاسانگاہ میں

انظر: محمد إقبال، بال جبریل، ص ۱۶۷.

لديه، فنظم عنه قصيدة بعنوان "شاهین: الشاهین"، كما كان له حضور في العديد من القصائد التي نظمها، حيث إن الشاهین عند إقبال رمز للشرق، وفي أحياناً أخرى رمز به إلى الصوفي (قلندر) كما ورد هنا في قصيدة "شاهین"

لقد اعتزلتُ كل شيء في الدنيا
في الخلوة سعادتي
أنا درويش "قلندر" في عالم الطير
من أجل رزق بماء وحب
والرهبانية، فطرتي منذ الأزل
فكيف لا يبنى الشاهین عشاً^(۱۶).

ثانياً: عناصر الطبيعة في شعر أحمد شوقي:

تقلب عين شوقي، تتأمل عظمة الكون، لترى بديع صنع الباري، وترصد مصائر الأيام، وتجوب ما بين السماوات والأرض، لترقب علاقة الكائنات بمبدعها، أو علاقة الكائنات بالكائنات، كما تتأمل علاقة الإنسان بنفسه، فتتقرب حركته بين الماضي والحاضر والمستقبل، منقبة عن علة هذه الحركة التي ترجع بكل شيء إلى مبتدى أمره ومنتهاه. فيقول:

تلك الطبيعة؛ قف بنا يا ساري
الأرض حولك والسماء اهترتنا
من كل ناطقة الجلال، كأنها
دلّت على ملك الملوك، فلم تدع
من شك فيه فنظرة في صنعه
حتى أريك بديع صنع الباري
لروائع الآيات والأثار
أم الكتاب على لسان القاري
لأدلة الفقهاء والأحبار
تمحو أثيم الشك والإنكار^(۱۷).

فعينا شوقي كانتا مفتوحتين على الطبيعة، حية كانت أم صامتة، والطبيعة الحية/الصائتة عند شوقي تتمثل في الحيوانات والطيور، ولا يدخل فيها الإنسان، إذ يعتبر قسماً منفصلاً عن الطبيعة. ومما يؤكد

۱۶ - کیا میں نے اس خاکِ داں سے کنار
جہاں رزق کا نام ہے آبِ ودان

بیاباں کی خلوتِ خوش آتی مجھ کو
ازل سے ہے فطرتِ مری راہبانہ

پرندوں کی دنیا کا درویش ہوں میں
کہ شاہیں بنانا نہیں آشیانہ

محمد إقبال، بال جبریل، ص ۱۶۴.

۱۷ - أحمد شوقي، الشوقيات، ت: محمد عبد المطلب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ۲۰۰۷م) ج ۱-۲، ص ۳۶.

لنا شغف واهتمام شوقي بالطبيعة أنه لم يدع مشهداً طبيعياً خلال أسفاره الكثيرة بين مشرق ومغرب إلا وقد وصفه وعبر عن تأثره به، فوصف في مصر أبا الهول، الأهرام، الأزهر، الجزيرة، الجزيرة، وأسوان، والبحر المتوسط، والنيل، والصحراء، والنخيل بين المنتزه وأبي قير، توت عنخ آمون، وغيرها. ووصف خارج مصر مناظر الجمال في سويسرا، ومناظر الطبيعة في طريقه إلى الأستانة ماراً بجبال البترول، ووصف السفور بصباحه وشمسه ومائه وجزره، وغاب بولونيا بباريس، ودمشق، والأندلس، وطوكيو.

لقد اخترت أحمد شوقي، في دراسة مقارنة مع العلامة إقبال لهذا التشابه الكبير بين شعر كل منهما، فشوقي أيضاً حين يصف الطبيعة، يخرجها من حد الطبيعة سواء كانت صائتة أو صامتة إلى حد الإنسانية، ففي قصيدته "توت عنخ آمون" يتخيل الشمس إنساناً يكلمها وتكلمه، وذلك خلافاً للتقليد المعروف، فمعظم الشعراء يستحضروا عناصر الطبيعة لمدمج ممدوحه، إذ يشبه ممدوحه بالشمس أو القمر، لكن عند شوقي الأمر مختلف، فيتخيل الشمس كإنسان ويسألها أن تقص عليه أحداث الماضي. وهو هنا يأخذ جانباً واحداً من جوانبها وهي أنها تفني الشباب والمشيب، وتنجب المواليد وتفنيهم، وتبني الحياة وتهدمها معاً، فهي كالهرة تأكل أبناءها الصغار، ثم تنتظر المواليد جدد:

أحاديث القرون الغابرينا	ففي يا أخت يوشع خبرينا
ومن دولاتهم ما تعلمينا	وقصي من مصارعهم علينا
ومن نسب القبائل أجمعينا	فمثلك من روى الأخبار طرا
ولا نحصي على الأرض الطعينا	نرى لك في السماء خضيب قرن
ودرت على المشيب رحي طحونا	مشيت على الشباب شواظ نار
وتبنين الحياة وتمهدمينا	تعينين المواليد، والمنايا
وما ولدوا، وتنتظر الجيننا...!! (١٨).	فيا لك هرة أكلت بنيتها

وإذا كانت الشمس في هذه القصيدة آكلة الحياة والأحياء، ومفنية القرون، وهذا هو الجانب السلبي منها، فإنها في قصيدة "منظر الشروق والغروب من أعلى سفينة" قد صورت أفضل جوانبها، وألطف

١٨ - أحمد شوقي، الأعمال الكاملة: الشوقيات (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م) ج ١، ص ٢٦٦-٢٦٧.

نواحيها:

تهمز الوجود تباشيرها
ويغشى الدنا من جلال سنى
من النار... لكن أطرافها
من النار... لكن أنوارها
هي الشمس كانت كما شاءها
ترد المياه إلى جسمها
وتطلع بالعيش أو بالردي

كما هزم من والديه الوليد
أضواء لنا كل حال نضيد
تدور بياقوتة لن تبيد
إلهية زينت للعييد
مات القديم، حياة الجديد
وتبلى جبال الصفا والحديد
على الزرع: الحصيد... (١٩).

كما أبدع شوقي في وصفه لـ "غاب بولونيا"^(٢٠) وتعامل معه كما تعامل مع الشمس من قبل، فقد خاطبه كما خاطب الشمس وكأنه إنسان، حيث يصفه قائلاً:

يا غاب بولون، ولى
زمن تقضى للهوى
حلم أريد رجوعه
وهب الزمان أعادها
يا غاب بولون، وبي

ولى ذمم عليك، ولي عهد
ولنا بظلك، هل يعود؟
ورجوع أحلامي بعيد
هل للشبية من يعيد؟
وجد مع الذكرى يزيد^(٢١).

"قد يجيء تصوير الطبيعة واتصال الشاعر بها أصليا أو عارضا. فالاتصال الأصلي - المباشر - هو الذي يقصد لذاته، ويقصد منه تصوير لوحة طبيعية لمشهد استولى على حس الشاعر. أما الاتصال العارض، فهو الذي تستجلبه صورة أخرى يجعل من الطبيعة مثالها والمثبه به فيها"^(٢٢).

١٩ - المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠، ٣١.

٢٠ - غاب بولونيا: منتزه مشهور في باريس.

٢١ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج ١، ص ٢٧.

٢٢ - محمد عبد المطلب، سلطة الشعر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م).

فالنوع الأول من الاتصال (الأصلي) موجود بكثرة عند شوقي، كتصويره للربيع، والبحر المتوسط، وغاب البولونيا، ومنظر طلوع البدر من سفينة، ومنظر الشروق والغروب، والنخيل، والقمر.. الخ.
أما النوع الثاني من الاتصال العارض بالطبيعة فكثير أيضاً وموزع في أكثر قصائده التي نظمها في المناسبات. فنجد في قصيدة "رحالة الشرق" يتحدث عن الحياة وأظائها وخذعها، فإنه يشبهها بالسراب الملتصق في الصحراء:

وما الحياة إذا أظمت، وإن خدعت إلا سراب على صحراء يلتوي (٢٣).

وفي قصيدة "دمعة وابتسامة" التي نظمها عندما عادت صاحبة السمو أم المحسنين والدة الخديوي عباس الثاني بعد غيبة طويلة في تركيا، وسبقها إلى العودة نعش حفيدها الأمير عبد القادر، نظم شوقي هذه القصيدة تهنئة لها بعودتها، وتعزية عن الأمير الفقيد، حيث جعلها كالشمس التي تروق في الضحى وتروع في الأصيل:

أقبلي كالشمس لم تجعل لها	موكباً أو تتخذ من حاشرين
أقبلي في بحر كطامي إذا	عبث السيف بموج المحتفين
أقبلي كالشمس راقت في الضحى	ثم راعت في الأصيل الناظرين (٢٤).

ومن عناصر الطبيعة التي أبدع في وصفها شوقي، وصف الجبال، حيث تعرض لها بالوصف في أكثر من قصيدة، فنجد في قصيدة "بلدة المؤتمر لناظرها في بهجة مناظرها" صورته تصويراً دقيقاً، فصور لونه، وارتفاعه، وملامسته السحاب، وسفوحه والبيوت المنضودة على مدارجه، والخضرة النابتة عليه، والمياه المنبثقة منه، فيقول في جبال سويسرا:

٢٣ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج١، ص ١٥٧

٢٤ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج٢، ص ١٢٠

حيث الجبال صغارها وكبارها
تخذ الغمام بها بيوتاً فانجلت
والصخر عالٍ قام يشبه قاعداً
بين الكواكب والسحاب ترى له
والسفح من أي الجهات أتته
نثر الفضاء عليه عقداً نجومه
من كل أبيض في الفضاء وأخضرا
مشبوبة الأجرام شائبة الذرى
وأناف مكشوف الجوانب مُندرا
أذناً من الحجر الأصم ومشفرا
ألفيته درجاً يموج مدورا
فبدا زبرجده بهن مجورها (٢٥).

ويمتاز تصوير شوقي للطبيعة، بأنه يصور لنا الجو الطبيعي كله بما فيه من ذكريات، ويستحضر التاريخ، فحين يصف النيل الخالد في رائعته القافية " أيها النيل"، فإنه يستحضر ذكرى وفاء النيل عند الفراعنة، وما يُقام في هذا الاحتفال بإلقاء فتاة كعروس للنيل:

في مهرجان هزت الدنيا به
فرعون تحت لوائه، وبناتُه
حتى إذا بلغت موأكبها المدى
وكسا سماء المهرجان جلاله
وتلفتت في اليم كل سفينة
ألقت إليك بنفسها ونفيسها
أعطفها، واختال فيه المشرق
يجري بهنّ على السفين الزورق
وجرى لغايته القضاء الأسبق
سيفُ المنية وهو صلت يبرق
وانثال بالوادي الجموعُ وحدقوا
وأنتك شقية حواها شيق... (٢٦).

وحين يصف " البحر الأبيض المتوسط" أيضاً بقصيدته التي نظمها بالأسكندرية عام ١٩٣١م، أي قبل وفاته بعام واحد، فإنه يستحضر " أمجادنا البحرية على أثباجه"، فيخاطبه قائلاً:

٢٥ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج١، ص ٣٣، ٣٤

٢٦ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج٢، ص ٦٩.

سَيِّدَ الْمَاءِ! كَمْ لَنَا مِنْ (صَلَاحِ)
 كَمْ مَلَأْنَاكَ بِالسَّفِينِ مَوَاقِيرِ
 شَاكِيَاتِ السَّلَاحِ يَخْرُجَنَّ مِنْ مِصْرِ
 شَارِعَاتِ الْجَنَاحِ فِي ثَبِجِ الْمَاءِ
 وَكَأَنَّ اللَّجَاجَ حِينَ تَنْزَى
 أَجْمٌ بَعْضُهُ لِبَعْضِ عَدُو
 قَدَفَتْ هَاهُنَا زَنْبِيرًا وَنَابَأً
 وَ"عَلَى" وَرَاءَ مَائِكَ ذِكْرِي
 كَشُّمَ الْجِبَالِ جُنْدًا وَوَفْرًا!
 بِمَلْمُومَةٍ، وَيَدْخُلْنَ مِصْرًا
 كَنَسْرٍ يَشْدُ فِي السَّحْبِ نَسْرًا
 وَتَسْدُ الْفِجَاجَ كَرًّا، وَفَرًّا...
 زَحَفْتَ غَابَةً لَتَمْزِيقِ أُخْرَى!
 وَرَمَتْ هَاهُنَا عُوَاءَ وَظُفْرًا (٢٧).

وإذا ألقينا نظرة على الطبيعة الحية عند شوقي، نجد أنه قد اتصل بالطبيعة الحية "الصائتة" عن طريق الحكايات التي نظمها على ألسنة الحيوان والطيور، وهو في ذلك متأثر بأسلوب كليلة ودمنة، ومن تلك الحكايات التي نظمها على ألسنة الحيوانات والطيور، قصيدة، "ضيافة قطرة، الصياد والعصفور، البلابل التي رباها البوم، الديك الهندي والدجاج البلدي، العصفور والغدير المهجور، الأفعى النبيلة والعقربة الهندية، السلوقي والجواد، فأر الغيط وفأر البيت، ملك الغربان وندور الخادم، الطيبي والعقد والخنزير، ولي عهد الأسد وخطبة الحمار، الأسد والثعلب والعجل، القرد والفيل، الشاه والغراب، الأسد ووزيره الحمار، الغزال والكلب، سليمان والطاووس، سليمان والهدهد، النعجتان، الكلب والحمامة، الياهمة والصيداء... إلخ".
 وكانت هذه القصيدة بعنوان "الثعلب الذي انخدع":

قد سمع الثعلبُ أهل القرى
فقال حقاً هذه غايتهُ
من في النهى مثلي حتى الورى
ما صرّ لو وافيتهم زائراً
لعلهم يُحيون لي زينةً
وقصد القوم وحياتهم
فأخذ الزائرُ نت أذنه
فلا تثق يوماً بذي حيلةٍ

يدعون محتالاً يباثعلبُ
في الفخر لا تُؤننى ولا تُطلبُ
أصبحتُ فيهم مَثلاً يضرب
أريمم فوق الذي استغربوا
يحصُرها الديدك أو الأرنب
وقام فيما بينهم يخطب
وأعطى الكلب به يلعب!
إذ ربما ينخدع الثعلب! (٢٨).

أما عالم الحشرات، فقد اختار منها شوقي "مملكة النحل" لتكون منبع إلهامه في قصيدة رقيقة قصيرة البحر، فقد جال شوقي بصره وبصيرته خلال هذه المملكة العجيبة المنظمة، والتي يتعاون رعاياها على العمل في سمع وطاعة وهندسة وإتقان عجيب، فيقول:

مالكوة، عاملة
بأكرة، تستنهض
السامعين، الطائعين
من كل من خطّ البناء
أو شدّ أصل عقده
أو طاف بالماء على

مصلحة، معمّره
العصائب المبكره
ن، المحسنين المهمره
ء، أو أقام أسطوره
أو سدّه، أو قوره
جدرانه المجدّره (٢٩).

سبق أن أشرتُ إلى أن العلامة إقبال قد استعان بالطبيعة الحية بنفس الأسلوب الذي اتبعه شوقي أيضاً، فقد نظمها على هيئة قصص على السنة الحيوانات والطيور، لكن الفارق الوحيد بينها هو أن إقبال نظم مثل هذه القصائد للأطفال فقط، لكن شوقي لم ينظمها للأطفال، حيث أفرد للأطفال قصائد خاصة

٢٨ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج٤، ص ١٨٠.

٢٩ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج١، ص ١٤٨.

تحت عنوان ديوان الأطفال والذي جاء في نهاية الجزء الرابع من الشوقيات، وتحتوي على مجموعة من الأشعار السهلة، لتكون للأطفال أديباً وثقافة، ومنها قصيدة "الهرة والنظافة"، ومطلعها:

هـرتي جـدُّ أليـفـه	وهـي لـليـبـت حـليـفـة
هـي مـا لم تـتـحـرِّكْ	دُمـيـةُ البـيـتِ الظـريـفـه
فـإـذا جـاءتْ وراحتْ	زـيـدَ في البـيـتِ وـصـيـفـه
شـغـلـها الفـأرُ تـنـقـي الرِّ	فَ مـنـهـ والسَّـقـيـفـه
وتـقـومُ الظُّهـرَ والعـصـرَ	بـأـورادٍ شـريـفـه (٣٠).

المبحث الثاني: الربيع في شعر إقبال وشوقي والقواسم المشتركة

أولاً: الربيع في شعر إقبال وأحمد شوقي:

الربيع فصل يأتي بعد شتاء هادئ جميل، في هوائه الدفء، وفي جوه الصحو، وفي سبائه الإشراق، وفي أيامه النشاط، وفي لياليه الأنس، وترى الحدائق تغطي ببساط أخضر، وحقول القمح تبدو فيه كالزمرد؛ فكل هذا يبيت في نفس الشاعر البهجة والنشوة والطلاقة ويحثه على نظم الشعر، حيث ينتقل الشاعر من شتاء - مكفن بالثلوج، وظلام متكاثف يحجب السماء، ويرد فارس بهراً الأجسام، وغمام متراكم يسد الأفق، فلا ترى شعاع شمس، ولا خفقة طائر، ولا زهرة في حديقة، إلى ربيع مكسو بالورد، إلى حياة تدب فيها الروح، إلى ابتهاج بعد كآبة، لذا نجد الشعراء دائماً في حنين إلى الربيع، ويتغنون به في قصائدهم.

إذا بحثنا عن الربيع عند إقبال من خلال ديوان بال جبريل، سنجد قصيدة "ساقى نامه: رسالة الساقى" والتي ترجمها د/ عبد الوهاب عزام، بـ "الربيع"، بينما ترجمها العلامة أبو الحسن الندوي، في كتابه روائع إقبال بـ "رسالة الساقى" وهذه هي الترجمة الصحيحة لها... وأعتقد أن السبب في ترجمة د/ عبد الوهاب عزام لهذه القصيدة بالربيع، هو أن إقبال عندما نظم هذه القصيدة صَدَّرَها بأبيات من الشعر تتناول وصف الربيع. وهذه القصيدة تشتمل على تسعة وتسعين بيتاً من الشعر، وهي مقسمة إلى سبعة مقاطع، جاء المقطع الأول فقط عن الربيع - أما شوقي، فقد تناول الربيع في قصيدة، إحداها طويلة مستقلة، بعنوان

"الربيع ووادي النيل"، وهذه القصيدة: أهداها إلى "هول كين" (۳۱) الكاتب الإنجليزي الروائي الشهير، والأخرى قصيدة تابعة جعلها صدرًا لقصيدته التي نظمها في المهرجان الذي أقيم لتكريمه. وإذا رجعنا إلى تاريخ شعرنا العربي القديم والحديث، نكاد نجزم أنه لا يوجد شاعر قبل شوقي، خص الربيع بقصيدتين محكمتين مثلما فعل.

جاء وصف الطبيعة عند إقبال في قصيدة "ساقى نامہ" من خلال وصف فصل الربيع بمصاحباته الدالة من نسيم ووديان وغابات تحتشد بالأشجار والزهور المتنوعة بحيث يبدو الربيع كقافلة محملة بكل أنواع البهجة والخصب ومفردات الحياة، فرائحة العبير تنتشر في أودية الجبال، وتتفتح الزهور بكل أنواعها، وتدفقت المياه من بين الأحجار، وتزينت السماء فرحة بمقدم الربيع، وانطلقت الطيور من أعشاشها مغردة، وتتدفق ينابيع المياه وتتراوح بين القفز والانسيابية في الجبال متخذة مسارات مختلفة، وإذا ما اعترضها حجر صلد تحول إلى شظايا صغيرة من شدة اندفاعها. فيقول:

حطت قافلة الربيع رحالها	وفاح عبرها في أودية الجبال
الزهر والنرجس والسوسن والنسرین	وشقائق النعمان ذات السیاح الأحمر
انبثوا جميعاً في ألوان الزهر	وتدفقت الدماء في شرايين الحجر
وأضحت السماء زرقاء سروراً وبهجة	وغادرت الطيور أعشاشها
وترى ينابيع الجبال قافزة، منسابة	ملتوية، مستقرة، مرنة، منسلة
قافزة، منسابة، تتهادى تارة	وتفيض أخرى فتتدفق بسرعة
وإذا ما اعترضها حجر، فتته	وتشقق أعماق الجبال
تمعن قليلاً، أيها الساقى	إنها تعزف قيثارة الحياة (۳۲).

۳۱ - كاتب إنجليزي شهير كان معاصراً لأحمد شوقي، ولد في ۱۸۵۳ م، ورحل عام ۱۹۳۱ م. ومن أشهر رواياته صوت الضمير.

للمزيد انظر شبكة المعلومات الدولية: www.liilas.com

۳۲ - هو انجيمر زن كاروان بهار
 ارم بن گيادامن كوسار
 گل ونرگس وسوسن ونسرن
 شهبدازل لاله نونم كفن
 جهاں چھپ گيا پرده رنگ میں
 ابوکی ہے گردش رگ سنگ میں
 فضائلی نیلی، ہوا میں سرور
 ٹھہرتے نہیں آشیاں میں ٹیور

أما شوقي فقد وصف الربيع بالزهور المتنوعة وبدأ ببقائتي النسرین وهي ضرب من الرياحین شدید البياض متألماً على أغصانه كالدرّ الملتصق بأسنة الرماح ، كما صور الياسمین اللطيف النقي كصدر الرجل السمح الكريم المترفع وهو يتخلل الأغصان ويبرز بينها كأنه نور الصباح آخر الليل عند انصداع الفجر، كما أن الجلنار "زهرة الرمان" ذات اللون الأحمر المشرب بالسواد يشبه خاتم السفاح الملطخ بالدماء، أما البنفسج فترسم على محياه ملاح شخص ناكل فقد أمه، غارق في حزنه، يتلقى تصاريق القدر بمشاعر مزوجة بالخوف والصلاح، وهناك نبات "الخطر" الذي يستخدم في صنع الخضاب الأسود الذي تجمع ملامحه بين الرقة والكآبة يشبه إلى حد كبير وجوه شعراء يتفاعلون مع مواقف حزينة، أما نبات السرو فيختال في برودة كاملة تشبه برود الیمن يكشف عن ساقه كامراًة مليحة تفخر بمفاتنها، وهناك النخل الطویل الممشوق وقد عصب بعصابة ووشح بوشاح. فيقول:

ويقائتُ النَّسْرِينَ فِي أَغْصَانِهَا	كالدَّرُّ رُكَّبَ فِي صَدُورِ رِمَاحِ
و"الْيَاسْمِينَ"، لَطِيفُهُ وَنَقِيَّتُهُ	كسُريرةِ المُنْتَزِزِهِ المِسْمَاحِ
مُتَأَلِّقُ خَلَلَ الغُصُونِ، كَأَنَّهُ	فِي بُلْجَةِ الأَفْئَانِ ضَوْءُ صَبَاحِ
و"الْجُلْنَارِ" دُمٌّ عَلَى أَوْرَاقِهِ	قَانِي الحُرُوفِ، كخَاتَمِ السَّفَاحِ
وَكأنْ مَخْزُونٌ "البِنْفَسَجِ" نَاقِلُ	يَلْقَى القَضَاءَ بِخَشْيَةٍ وَصَلَاحِ
وَعَلَى "الخِوَاطِرِ" رِقَّةٌ وَكآبَةٌ	كخِوَاطِرِ الشُّعْرَاءِ فِي الأَتْرَاحِ
وَالسَّرُوفِ فِي الحَبْرِ السَّوَابِغِ كاشِفُ	عَنْ سَاقِهِ كَمَلِيحَةٍ مَفْرَاحِ
و"النَّخْلِ" مَمْشُوقُ العُدُوقِ مُعْصَبُ	مَتَزِينٌ بِمِنَاطِقِ وَوَشَاحِ (۳۳).

ثم يشبه شوقي الفضاء بحائط من رخام وقد ركبت عليه بدائع الألواح ، وهناك الغيوم التي في

وہ جوئے کستان اچکتی ہوئی
اچھلتی، پھلتی، سنبھلتی ہوئی
رکے جب تو سل چیر دیتی ہے یہ
ذرا دیکھو اے ساقی لالہ قام!
انظر: محمد إقبال، کلیات إقبال، ص ۷۱۷.

— ۳۳ — محمد إقبال، الشوقیات، ص ۲۳، ۲۴.

السماء منها المتحرك ومنها الساكن وجمع بين حركتها وسكونها للدلالة على تنوعها، وهناك الشمس بأشعتها الذهبية كأنها عروس برقعت بعسجد يوم زفافها، كما شبه الماء بالزئبق في صفائه، فجمع بين جمال لون الشمس وصفاء الماء. وانعكست أشعة الشمس على الماء فيظهر كالنيلوفر^(٣٤) وقد تزين بأشعتها، ويباهى شعاعها المتناثر فوق الغصون كتباهي الجواهر في راحة اليد. فيقول:

وترى الفضاء كحائط من مَرَمِرٍ	نُضِدَتْ عَلَيْهِ بَدَائِعُ الْأَلْوَحِ
الغَيْمُ فِيهِ كَالنَّعَامِ: بَدِينَةٌ	بركت، وأخرى حَلَقَتْ بِجَنَاحِ
والشمسُ أبهى من عروسٍ برقعتُ	يوم الزَّفَافِ بعسجدٍ ووضَّاحِ
والماءُ بالوادي يُجَالُ مَسَارِبَا	من زئبق، أو مُلَقِيَاتِ صَفَاحِ
بعثت له شمسُ النهارِ أشعَّةً	كانت حُلَى (التَّيْلُوفِرِ) السَّبَاحِ
يزهو على ورقِ الغصونِ نثرُها	زَهْوَ الجَوَاهِرِ فِي بَطُونِ الرَّاحِ ^(٣٥) .

العلامة إقبال في قصيدة "ساقى نامة"، استخدم تقنية دالة ولافتة للانتباه وهي تقنية الرسم بالكلمات، فحين تقرأ هذه القصيدة تشعر وكأنك ترى صورة فنية طبيعية رائعة أمامك، وإقبال قد رسم بريشة الفنان المبدع صورة فنية راقية الذوق عن فصل الربيع، وهذا أسلوب فريد تفرد به شعر إقبال عن غيره، فهو يثري هذا الفن بأسلوبه الرشيق الذي لا يستطيعه إلا أمثال إقبال من عباقرة الشعر.

وقديماً قال البلاغيون العرب: "إن أفضل الشعر ما قلب السمع بصراً، والتفت البلاغيون اللاتينيون إلى هذه الخاصية، فحدثونا عن أن الشعر نوع من الرسم، متابعين في ذلك ما ذكره الجاحظ قبلهم من أن الشعر نظمٌ وتصويرٌ.. وهكذا إلى أن نصل إلى الإمام محمد عبده، الذي تحدث عن فن الشعر، مقارناً إياه بفن الرسم فوصف الرسم بأنه شعرٌ صامت، والشعر بأنه رسمٌ ناطق"^(٣٦).

فيصف إقبال تدفق ينابيع المياه وهي تتراوح بين القفز و الانسيابية في الجبال متخذة مسارات مختلفة ما بين متعرجة، ومستقيمة، ومتخفية، وإذا ما اعترضها حجر صلد تحول هذا الحجر إلى شظايا صغيرة

٣٤ - نبات مائي معمر ينبت فوق المياه الراكدة.

٣٥ - أحمد شوقي، الشوقيات، ص ٢٤.

٣٦ - صبحي الشاروني: موسوعة الفنون الجميلة المصرية في القرن العشرين، (الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٣م) ص ٥٢.

من شدة اندفاعها، فهناك تناغم بين هذه العناصر وانسجام كأنها فرقة موسيقية تعزف نغمة على قيثارة الحياة. فيقول:

وترى ينايع الجبال قافزة، منسابة	ملتوية، مستقرة، مرنة، منسلة
قافزة، منسابة، تتهادى تارة	وتفيض أخرى فتدقق بسرعة
وإذا ما اعترضها حجر، فتته	وتشقق أعماق الجبال (٣٧).

كما نجح شوقي في رسم لوحة فنية أخرى للربيع، حيث وصف سواقي الماء في الريف وصور الصوت الصادر عن حركة السواقي وتدقق الماء الخارج منها بالنوادر المخبرات بخبر الميث، ويذرفن الدموع بغزارة تعبيراً عن مرّ الشكوى. كالناقة الهزيلة التي برزت ضلوعها للرائي وتعاني شدة العطش رغم وجود الماء في أحشائها. كما يغلبها البكاء من شدة التعب وتضحك في حال الدعة والراحة، هكذا شأن الإبل والمراوحة بين الشقاء والراحة، حيث ترسف في الأغلال والقيود وجارها، كفيف لا حول له ولا قوة لشعوره بالقهر والعجز. فيقول:

وجرت سواقي كالنّوادر بالفرى	رُعن الشجى بأنّة ونوّاح
الشاكيات وما عرفن صباة	الباكيات بمدمع سحاح
من كلّ بادية الضلوع غليية	والماء في أحشائها، ملواح
تبكي إذا رتبت، وتضحك إن هفت	كالعيس بين تنشط ورزاح
هي في السلاسل والغلول؛ وجارها	أعمى، ينوء بنيره الفدّاح (٣٨).

غالبًا ما يكون الخمر ملازمًا ومرتبًا بوصف الطبيعة. فالخمر عند الشعراء، هو العبث والمجون، وهو الوقود الذي يمنح النفس الطاقة لمواجهة أعباء الحياة، كما أنه أحد مفاتيح كشف أسرار الكون. لكن توظيف الخمر في قصائد إقبال جاء مجرداً من العبث والمجون واللهو كعادة الشعراء العرب الجاهلين لأن شعره خرج من منابع الصوفية وروحها. فهو يخاطب ساقى الخمر وهو في كامل وعيه بضرورة كشف سر

٣٧ - محمد إقبال، كليات إقبال، ص ٧١٧.

٣٨ - أحمد شوقي، الشوقيات، ص ٢٤.

الخمر ونزع الغطاء عنه حتى يصل إلى سر الوجود، كما يصور نفسه بالعصفور الصغير في مواجهة غواية الخمر التي شبهها بالصقر الكبير ويدعو الساقى أن يحميه من سطوتها. فقد انتقل إقبال بعد وصفه للربيع إلى وصف الخمر التي تعوضه عن غياب الربيع الذي لم يأت بعد، وإقبال هنا يذكرنا بشعراء الجاهلية حين كانوا يكون الأطلال، فهو يجعل ذكريات الخمر والشراب هي أطلاله وربوعه التي يتمنى رائها، حيث يقول:

اسقني من تلك الخمر فلم يأت الربيع بعد
اسقني من تلك الخمر التي تنير الحياة تلك التي هي نبع الطرب والنشوة
تلك الخمر التي تمنح الحساس تلك التي تملك مفاتيح سر الكون
أيها الساقى! انزع الستار عن هذا السر واحمي هذا العصفور الصغير من ذلك الصقر (۳۹).

أما شوقي فقد امتلأت نفسه وعينه بجمال الحياة مع إطلالة فصل الربيع في شهر آذار "مارس" فينادي صاحبه لكي يرحب بالربيع الذي يمثل حديقة تتلاقى فيها الأرواح، كما صور مجالس اللهو والطرب وحنه على استدعاء الندماء للاجتماع في ظلال الربيع وتحت لوائه ونصحه بأن يغتنم فرصة الصحوة هذه التي ليست متاحة دائماً في صحبة الموسيقى وأقداح الشراب بين الرياض الغناء. ووضع شوقي شروطاً يجب توافرها في الصحبة منها أن يكونوا غر الوجوه وأصحاب مهابة وحضور، لامعين كالنجوم المتألثة، يعلوها البشر والسرور. فيقول:

۳۹ - بلا دے مجھے وہ مئے پردہ سوز کہ آتی نہیں فصل گل روز روز
وہ مئے جس سے روشن ضمیر حیات وہ مئے جس سے ہے مستی کائنات
وہ مئے جس میں ہے سوز و سازا زل! وہ مئے جس سے کھلتا ہے رازا زل
اشھاسا قیام پردہ اس راز سے لڑا دے مولے کو شہباز سے
انظر: محمد إقبال، کلیات إقبال، ص ۷۱۷.

أَذَارُ أَقْبَلْ، فَمَ بِنَايَا صَاحِ
وَاجْمَعُ نَدَامَى الظَّرْفِ تَحْتَ لَوَائِهِ
صَفْوُ أُتِيحَ، فَخِذْ لِنَفْسِكَ قِسْطَهَا
وَاجْلِسْ بِضَاحِكَةِ الرِّيَاضِ مُصَفَّقًا
وَاسْتَأْنِسَنَّ مِنَ السَّقَاةِ بِرُفْقَةٍ
حَيِّ الرِّيْبَعِ حَدِيقَةَ الأَرْوَاحِ
وَانْشُرْ بِسَاحَتِهِ بِسَاطَ الرِّاحِ
فَالصَّفْوُ لَيْسَ عَلَى المَدَى بِمُتَّاحِ
لِتَجَاوُبِ الأَوْتَارِ والأَقْدَاحِ
عُرِّ، كَأَمْثَالِ النُّجُومِ، صِبَاحٌ (٤٠).

وينتهي شوقي القصيدة بأن الربيع يذكره بعهد الشباب والفتوة حينما كان يمتطي فرسه الكريم الإليف حيث تنتشي النفس بمجرد رؤيته. ويتحسر الشاعر على شبابه الذي كان مفعما بالنشاط والحيوية كالربيع وجماله، فما كان عهد الشباب في مروره سريعاً وسرعة فئاته إلا زهرة من زهور الربيع اعترأها الفناء بغير جريرة ارتكبتها.. فيقول:

إِنِّي لِأَذْكُرُ بِالرَّبِيعِ وَحَسَنِهِ
هَلْ كَانَ إِلا زَهْرَةً كَزَهْوَرِهِ
عَهْدَ الشَّبَابِ وَطَرْفِهِ المِمْرَاحِ
عَجَلَ الفَنَاءُ لَهَا بِغَيْرِ جُنَاحِ؟ (٤١).

كما أشرت سابقاً أن إقبال كان لديه فلسفة خاصة، وقد وظف عناصر الطبيعة لتطويع فلسفته هذه، فقد استعاناً بالطبيعة لعوامل سياسية ملتبهة متمنيا هطول أمطار الثورة لتزدهر حال أمتة وتنقش الغمة وينزاح غبار الاستعمار عن وطنه. فالشعر عند "إقبال" له "رسالة أخلاقية" مهمته إشعال العواطف في قلوب الأمة، يحرك النفوس ويبعث بالأمل، وقد نجح شعره في تحقيق هدفه المنشود، فكان شعره قادراً على إثبات الذات والتعبير عنها، والتأثير فيها، وكان الطاقة التي تدفع إلى الأمل، والنور الذي يبعث الضياء في العين. فنجدته يلقي باللائمة على المواطن الشرقي الذي يترك سحر وبهاء الشرق سواء في مصر والحجاز أو فارس والشام ويتجه إلى الغرب بحثاً عن المتعة والجمال في حين أنه يترك من خلفه النساء الحسنات الأشبه بالخور العين، وكذلك مضارب الخيام في الصحراء المكتنزة بالأسرار، وكذلك افتقد الخمر المعتقة والكأس الجميل، ولكنه لا يعثر على ربيع هناك في الغرب. ورغم تقدم الغرب مادياً وتقنياً لكنه يفتقد سحر الطبيعة

٤٠ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج ٢، ص ٢٢.

٤١ - المصدر السابق، ص ٢٥.

وجماها وما زال طائر الشرق يخلق في سماءات السحر والجمال. فحين كان في لندن، كتب هذه الغزلية والتي يتصدّرها بقوله:

لقد تخلّيت عن أعراف وطنك، ولم تقطع الطريق بعد
لقد هجرت مصر والحجاز، وفارس والشام
من يعمل بلا هدف، فلا جزاء له
لقد تركت الحور والخيام، والخمر والكأس
فإذا كان القلب يرنو إلى ربيع الغرب
إلا أن طائرک المحلق في أعالي السماء، يتألق من بعيد^(۴۲).

وإقبال هنا يرسم خريطة للشرق والغرب، فهو يؤمن بأن الشرق ما زال يمتلك طبيعة بكر لم تنتهك، في حين أن الغرب غارق في حضارته المادية. وإقبال شاعر يشعر بأخطاء الشعوب التي ينتمي إليها، ويعرف قضايها المخرسة. أما شوقي فقد تناول التغنى بالربيع في بعض الأبيات الشعرية له، لكنه لم يوظفه في القضايا السياسية أو القومية مثلما فعل إقبال.

ثانياً: القواسم المشتركة في شعر إقبال وأحمد شوقي:

(۱) انسجام مفردات القصيدة: تعرضت كتب النقد العربي القديم للعلاقة التي تربط الإبداع بالتناقض، فاشترطت خلوه منه؛ لأنه يكسر انسجامه ويزيل حسنه؛ إذ ينبغي أن يأتي الكلام متحدراً كتحدراً الماء المنسجم، وسهولة سبك وعدوبة ألفاظ، حتى يكون للجمل من المنشور والبيت من الموزون وقع في

۴۲ - تو ابھی رہ گزر میں ہے قید مقام سے گزر

مصر و حجاز سے گزر، فارس و شام سے گزر

جس کا عمل ہے بے غرض اس کی جزا کچھ اور ہے

حور و خیم سے گزر، بادہ و جام سے گزر

گرچہ ہے دلکش بہت حسن فرنگ کی بہار

طائرک بلند بال، داندہ دام سے گزر

انظر: محمد إقبال، کلیات إقبال، ص ۵۹۱.

النفوس وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره، مع خلوه من البديع وبعده عن التصنع^(٤٣).

وهذه السمة موجودة ونلمسها عند كل من إقبال وأحمد شوقي، فيقول إقبال:

فضائلي نيل، هو ائس سرور	ظہرتے نہیں آشیاں میں طيور
وہ جوئے کستال اچکتی ہوئی	اکٹی، سرکتی، کچکتی ہوئی
اچھکتی، پھسکتی، سنبھکتی ہوئی	بڑے پیچ کھا کر نکلتی ہوئی ^(٤٤) .

فلاحظ أن المرونة هي الطابع المهيمن على الأبيات، فلا يوجد تنافر بين عناصر الصورة الجمالية، حيث تشهد الخواطر السليمة أنه كلام طبيعي، أي أنه كلام طبع لا تصنع يتدخل فيه الفكر. كما يقول شوقي:

إني لأذكرُ بالربيع وحسنه	عهدَ الشباب وطرفه الممراح
هل كان إلا زهرة كزهوره	عجلَ الفناء لها بغير جناح؟ ^(٤٥) .

حيث يربط شوقي بين الشباب والربيع بجامع الفتوة والنضارة، ثم يجعل الفناء بالنهاية كزهرة أصابها الذبول بغير جريرة. لذلك " اعلم أن الانسجام هو أن يأتي كلام المتكلم شعراً، من غير أن يقصد إليه، وهو يدل على قوة الطبع والغريزة^(٤٦)."

لن نقف هنا عند القيمة الإبداعية لأبيات شوقي، بقدر ما سنقف عند مفهوم الطبع والغريزة باعتبارهما الأساس الذي أقيم عليه الانسجام، مما يمنحنا ثنائية كبرى تجعل ما وصف بشعر الطبع شعراً منسجماً، وما وصف بشعر الصنعة عكس ذلك. المهم وجود تعالق بين مكونات القصيدة واتساق بين أبياتها. (٢) تجاور الألوان: اللون من أهم ظواهر الطبيعة وأجملها، ويستعين الشاعر بالألوان، ليعبر عن عمقه العاطفي وجوهره الفكري، وكأنه رسامٌ مدرك بخفايا الألوان و دلالاتها و علاقاتها بالإنسان، بل إن "الصور والألوان تنطلق من جوانية الشاعر، و خبرته البصرية، ووعيه التاريخي، و حفرياته الأسطورية، و تجربته النقدية، و تجواله و مشاهداته التشكيلية، و تنوع اهتماماته بين الفنون، بحيث تصبح الصورة ليست

٤٣ - ابن أبي الأصبغ: تحرير التحرير، تحقيق عبد أعلى مهنا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م) ص ٤٢٩.

٤٤ - محمد إقبال، كليات إقبال، ص ٧١٧.

٤٥ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج ١، ص ٢٥.

٤٦ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي (لبنان: دار الكتب العلمية) ص ٦١.

مجرد أداة للمعرفة فحسب، وإنّما أداة للحرية أيضاً" (٤٧).

وإقبال يمزج بين الألوان في بينات مختلفة فيقول:

پھر چراغِ لاله سے روشن ہوئے کوہِ دودمن

مجھ کو پھر نغموں پہ اکسانے لگا مرغِ چین

پھول ہیں صحرائیں پریاں قطار اندر قطار

اودے اودے، نیلے نیلے، پیلے پیلے پیرہن (٤٨).

فزهو شقائق النعمان الحمراء اللون تزين قمم الجبال، "واللون الأحمر من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس، واشتعال النار والحرارة الشديدة وهو من أطول الموجات الضوئية، وهو لون البهجة والحزن، وهو لون العنف ولون المرح" (٤٩). واللون الأحمر هنا يحمل الدلالة الإيجابية حيث يعبر عن القوة والحياة والحركة.

كما تنوع ألوان الزهور ما بين القرمزي والأزرق والأصفر. فاللون الأزرق لون الوقار والسكينة والهدوء والحكمة والتفكير، ويشجع على التخيل الهادئ والتأمل الباطني. وللأزرق دلالات واسعة و مختلفة، وربما يعود ذلك لأسباب منها تفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم، فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود؛ لذا فهو يثير النفور والحقد والكراهية، وقد ارتبط بالغول والجن والقوى السلبية في الأرض، بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء والسماء، فهو مناسب للهدوء والبرودة، و بقيت درجات هذا اللون بين هذين الحدين. كما عرف العرب اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم، و عيون الجوارى والقيان منذ عهد الجاهلية عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد فارس، لذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلا نادراً (٥٠).

أما اللون الأصفر فيمثل قمة التوهج والإشراق، لأنه لون الشمس مصدر الضوء واهبة الحرارة

-
- ٤٧ - حسين نشوان: المعجم اللوني في شعر عز الدين المناصرة، الأردن، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، عدد ١٨٩، تموز، ٢٠٠٤ م.
- ٤٨ - محمد إقبال، كليات إقبال - بال جبريل -، ص ٥٩٣، ٥٩٤.
- ٤٩ - أحمد مختار عمر، اللغة واللون (القاهرة: الكتب، ١٩٩٧ م) ط ٢، ص ٢٠١.
- ٥٠ - محمد جميل الخطاب، العيون في الشعر العربي (دمشق: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع، ٢٠٠٣ م) ط ٣، ص ٨٥.

والحياة واستخدمه المصريون القدماء رمزاً لآلهة الشمس، لكنه من ناحية أخرى يحمل دلالة سلبية فهو لون المرض والانقباض، ويرتبط بالخريف والصحاري الجافة وموت الطبيعة^(٥١). لكنه هنا يحمل الدلالة الإيجابية أنه فاقع اللون يسر الناظرين كما في قوله تعالى: ﴿صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾^(٥٢). أما اللون القرمزي فهو نابض بالحياة.

أما شوقي فاستخدم الألوان في تشكيل نصه الشعري؛ فاللون يمنح الحياة والوجود قيمة لا يمكن إغفالها، فهل نتخيل أنفسنا نرى لونا واحدا؟ هل نشعر بالجمال لو اختفت الألوان من الأرض وأصبحت ترى بلا ألوان؟
فيقول:

حيث الجبال صغارها وكبارها من كل أبيض في الفضاء وأخضر^(٥٣).
واللون الأبيض رمز الطهارة والنور والغبطة والفرح، كما أنه رمز الصفاء ونقاء السريرة والهدوء والأمل، وحب الخير والبساطة في الحياة.

في العصور القديمة كان اللون الأبيض مقدساً و مقصوراً على آلهة الرومان، و كان يضحى له بحيوانات بيضاء، و عند المسيحيين عادة ما يرمز للمسيح بثوب أبيض دليلاً على الصفاء و النقاء و الخلو من الدنس، و في مصر القديمة كان الفرعون يرتدي تاجاً أبيض ليرمز لسيطرته على مصر العليا مما يشير إلى أنها كانت تعيش بسلام و طمأنينة^(٥٤).

يرتبط اللون الأخضر بالأمل والتفاؤل والعطاء والبهجة. فالطبيعة تمل ملاذاً آمناً في مواجهة ما يكابد ويعانيه من الحاضر، لذا فهي خضراء تحمل الأمل بدلا من الألم. ويعد "اللون الأخضر من أكثر الألوان وضوحاً واستقراراً في دلالاته، المحببة ذات الإحساء المبهمة لارتباطه بأشياء مهمة في الطبيعة أصلاً، كالنبات والأحجار الكريمة، ثم جاءت المعتقدات الدينية، وغدت هذا الارتباط

٥١ - أنطوان غطاس كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث (بيروت: دار الكشاف، ١٩٤٩م) ص ٩٤.

٥٢ - سورة البقرة، الآية: ٦٩.

٥٣ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج ٢، ص ٣٣.

٥٤ - أحمد مختار عمر، اللغة واللون، ص ١٦٣.

بالخصب والشباب وهما مبعث فرحة الإنسان".

فلم يأت توظيف الألوان عند كلا الشاعرين بشكل اعتباطي، لكنه جاء بشكل منسجم، ويحمل دلالات تتفق مع الخلفية الثقافية عند إقبال وشوقي.

(٣) شعرية الوجود: في الوقت الذي كان فيه كل ما يحيط بإقبال وشوقي جديراً بأن يعمل ضدّهما، أو يدفع بهما على الأقل نحو أفق محدود مثل معاناة الاستعمار والتخلف، ذهب كل ما يحيط بهما على العكس من ذلك، فسمح لهما بكتابة شعر أصيل ملهم وعميق في آن معاً؛ لأن الشعر لديهما ليس لعباً لغوياً لكنه حركة وجود. فعندما يقول إقبال:

وألقى نسيم الصباح بلؤلؤة الندى على أوراق الزهر

فأضاء شعاع الشمس هذه اللؤلؤة الحسن غير مبال بسفوره

لا شك أن كلمات إقبال صورة تنبض بالحياة، ولا شك أن بينها وبينه علاقة بصرية، وأنه يستوحىها ويعيد تشكيلها بعينه. فنلمس من هذه الأبيات أن إقبال واقفا مغروساً في وسط الحدائق مستيقظاً بكل حواسه، متأملاً لكل ما تعرضه الطبيعة من كنوزها الجمالية، فهناك تناغم وتناسق بين الزهور والندى وشعاع الشمس... كل تلك العناصر تعزف سيمفونية نادرة ويتجلى الحسن للعيون متخلياً عن خجله التقليدي وخفزه المعهود. فإقبال يخلق الطبيعة خلقاً جديداً في الشعر الأردني. وينحو منحى مختلفاً صاغه التأمل في الطبيعة على طريقة التأمل في الوجود فيقول:

ذات ليلة، قال نجم السحر للكواكب

هل رأى أحد منكم آدم مستيقظاً؟

فقال المريخ ساخراً

الحكمة تقتضي أن يغطّ هذا الصغير في سُبّات عميق

قالت زهرة، ما هذا الهُراء؟

هل سنمضي الليلة في حديث غير ذي بال! (٥٥).

فالوجود عند إقبال علامات ومرايا، علامات تنبئ عما تنطوي عليه الطبيعة من أسرار تغوي

الإنسان بالبحث عنها وفيها، ومرآيا للحضور الكلي المطلق الذي هو موجود في كل الوجود، ولذلك تبقى الطبيعة خالدة بينما يفنى الإنسان الذي سرعان ما يتحول إلى رماد^(٥٦).

فلاحظ تأمل الذات الشاعرة عند إقبال حيث يثير سؤالاً من خلال النجم، (هل رأى أحد منكم آدم مستيقظاً؟)، ثم يرد المريخ، وتليه زهرة، فتوازيات أو تداخلات الوجود والعدم تولد الأسئلة الميتافيزيقية المحيرة المتعلقة ببدء الخلق وظهور آدم أبي البشرية، وحركة الكواكب في حوار شعري متناغم. وسيمفونية إقبال تتواشح مع سيمفونية شوقي حينما يقول:

رَتَمَ الرُّوْضُ جَدُولاً وَنَسِيماً	وَتَلَا طَيْرٌ أَيَّكِهِ غَصْنٌ بَانَهُ
وَشَدَّتْ فِي الرُّبَا الرِّيحَ هَمْساً	كَتَغَنَّى الطُّرُوبِ فِي وَجْدَانِهِ
كُلُّ رَيْحَانَةٍ بَلْحَنٍ كَعُورَس	أَلْفَتْ لِلْغِنَاءِ شَتَّى قِيَانِهِ
نَعَمٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَتَّى	مِنْ مَعَانِي الرَّبِيعِ أَوْ أَلْحَانِهِ ^(٥٧) .

فنجد سيمفونية أخرى تشدو بها الجداول والنسيم وأصوات الطيور والروابي الخضر وتحتضنها الرياض اليناعة ويتردد صدى هذه السيمفونية في السماء حاملة عبق الربيع وألحانه. لكن شوقي هنا عكس إقبال، فهو يبدو مشاهداً أكثر منه مشاركاً، حيث يثبت للقصيد إطارها الموضوعي أي الوصف، كما أنه يثبت زاوية نظر الشاعر حول التناغم والتناسق بين السماء والأرض باعتبارهما طرفي الوجود. وتترابط مقاطع هذه القصيدة ترابطاً جمالياً فريداً؛ فلا نحس بأن هذا المقطع كان يمكن أن يسبق أو يلحق بمقطع آخر بل إن البناء الفني لكل مقطع قد أحكم تشييده ضمن نسقه الشعري الملائم.

الخاتمة:

كان الموضوع الأساسي الذي يدور حوله هذا البحث هو تحليل مختارات من عناصر الطبيعة من خلال قصائد الشعارين (إقبال، شوقي)، ثم خصصت الربيع بالدراسة، وبعد أن انتهيت من الدراسة توصلت إلى عدة نتائج وهي:

٥٦ - جابر عصفور، رؤيا حكيم مخزون.. قراءات في شعر صلاح عبد الصبور (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠١٧م) ص ٣٤.

٥٧ - أحمد شوقي، الشوقيات، ج ٢، ص ٢٥.

إن إنجاز كل من إقبال وشوقي الشعري يرتقي إلى مستوى الروائع العالمية التي تعبر عن النزعة الإنسانية، فإقبال ليس شاعر الهند أو باكستان فحسب، بل شاعر الشرق، فقد ذاع صيته في العالم الشرقي والغربي، وقد جاء إنتاجه الأدبي يحمل فكراً وفلسفة خاصة وانعكاساً لواقع معيش بما فيه حياة الناس بمعاناتهم وطموحاتهم. وشوقي أمير الشعراء العرب، وألمع شاعر في تاريخ الأدب العربي الحديث، لتعدد نواحيه الفنية، وتشعب آثاره الأدبية، فقد ملأ عصره بقصائده الغنائية، ووصلها بمسرحياته التمثيلية.

الطبيعة عند إقبال هي المعنى التي تتفجر منه شاعريته، وفي أرجائه يطوف خياله، إنها كائن حي يجبهها وتحبه، يناجيها وتناجيه، فلم يتخذ إقبال الطبيعة لذاتها مكتفياً بوصفها ونقل محسوساتها الخارجية، وليس ذلك بمعجز له أو صعب عليه، وهو الشاعر القدير على النظم والصياغة، ولكنه اتخذ من الطبيعة بجزيئاتها ومظاهرها ومفاتها عنصراً مكماً ومتداخلاً مع أشياء أخرى... فلم يتخذها مسرحاً أو مكاناً للحدث وإنما جعلها جزءاً منه... فأنطقها وطبع عليها صفات إنسانية ومنحها حواساً بشرية فهي ترى وتسمع وتشم! وهي تضحك وتبكي وتفرح وتتألم. أما شوقي فقد جعل من نزعته الرومانسية شاهداً على تفاعل حقيقي مع الطبيعة وعناصرها الملهمة في إطار من الإحساس بالعالم والأشياء، وقد وظف بساطة اللغة، ونأى بها عن التعقيد مع العناية بالجانب الاستعاري الجمالي، الذي يرتفع باللغة من منحها التقليدي، إلى مستويات أرفع من التعبير.

يتفق إقبال مع شوقي إلى حد كبير في الرؤية الشعرية حيث نهلا من آبار الفن الصافية، كما جمعتهما الساحة والحرية والطلاقة وروح الجدة والأصالة، ووحدتهما الفكرة، حيث جاء شعرهما ملاذاً يحمي الشخصية القومية من هجمات الغزاة ورياح الثقافات الأجنبية، والنهوض بالوطن نحو التقدم، فالشعر عندهما وحيماً يلقي فيه الشاعر روعه، ونجوى القلب الذي لا يملك الشاعر إلا ترجمتها، وصوتاً من أصوات الطبيعة يحاكيها في ألحانها من شدو البلابل وحفيف الغصون، أو هبة الريح، وخرير الغدير أو ثورة البحر، فكان صوتها من فم الطبيعة ينساب انسياب الحياة في الأوصال. فاستطاعا أن يعربا عن نوازعها وخلجات نفوسهما في إخلاص وصدق، ونضارة وإشراق، لا عهد للشرق بهما.

الشاعران إقبال وأحمد شوقي من شعراء الطبيعة بامتياز، حيث تفاعلا مع الطبيعة، وتأثرا بها، فشاطراها همومها وأشجانها، كما يمتلكان قاموساً شعرياً جديداً، زاخراً بالألفاظ الجديدة، والأسلوب

الشعري المبتكر الذي يهدف إلى التعبير عن النفس وتصوير العواطف في صدق وواقعية. كلا الشاعرين تناولا وصفا للعديد من عناصر طبيعة بيئته، لكن كلا منهما عبر عن فكرته بأسلوبه الخاص به... لكن من الحق أن نقول: إن شعر العلامة إقبال كان يحمل فكراً أكثر عمقاً، وفلسفة خاصة امتاز بها وتفوق بها على شوقي... فوصفه للربيع لم يكن وصفاً خيالياً أو جمالياً فقط، بينما جاء وصف الربيع عند شوقي كما تخيله لا كما رآه، وكما تمثله لا كما أحسه شوقي، فجاء وصفه معجباً مبهماً، قد يعجب ويغرب بألفاظه، لكنه لا يؤثر ولا يعرب بمعانيه، لكنه على أي اعتبار مشاركة جميلة من شوقي للشعر العالمي في تمجيد ذلك السر، الذي بيئه الله كل عام في الربيع، فيعيد الحياة، ويرجع الشباب، ويجدد الأمل، ويُنشر الجمال وينشأ عنه في الدنيا هذا البعث العجيب.